

## القصص الذي

## الْفَوْقَى

عبدالله بن محبوب

۱۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جِنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجِنُودًا لَمْ تَرُوهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَرَأَوْلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

(قرآن كريم)

كَانَ الْيَهُودُ يَكْرَهُونَ مُحَمَّداً بِنَتَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ  
دِينَهُ يَتَشَبَّهُ ، وَأَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَصْبَحُوا أَقْوَيَاءَ بِهِ ،  
فَكَرُرُوا فِي أَنْ يَفْعُلُوا شَيْئاً ؛ لِيَقْضُوا عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْهُ . وَلَا كَانَ قُرِيشٌ عَذُوذٌ  
الْأَشَدُ ، ذَهَبَ بَعْضُ أَشْرَافِ الْيَهُودِ إِلَى مَكَّةَ ،  
لِيَتَفَقَّوْا مَعَ قُرِيشٍ عَلَى حُرُبِ الْمُسْلِمِينَ .

دَخَلَ الْيَهُودُ عَلَى أَبْنَى سُفِيَّانَ وَسَادَاتِ قُرِيشٍ ،  
وَقَالُوا لَهُمْ :

— إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ .  
وَرَأَى بَعْضُ أَشْرَافِ قُرِيشٍ أَنَّ يَسْأَلَ الْيَهُودَ عَنْ  
دِينِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ :  
— يَا مَعْشَرَ يَهُودِ ، إِنْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ

«الْتُورَاةَ» ، وَالْعِلْمُ بِهَا أَصْبَحَنَا مُخْتَلِفُ فِيهِ لَحْنٌ  
وَمُحَمَّدٌ ، أَفَدِينَا خَيْرًا أَمْ دِينُهُ ؟  
كَانَ الْيَهُودُ يَحْسُدُونَ مُحَمَّدًا ، وَيَفْتَأِلُونَ مِنْهُ ،  
فَقَالُوا :

— بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ ، وَأَنْتُمْ أُولَئِي بِالْحَقِّ مِنْهُ .  
جَعَلُوكُمُ الْحَسَدُ يَقُولُونَ : إِنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ خَيْرٌ  
مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : « أَلَمْ تَرَ  
إِلَيَّ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِنَّتِ  
وَالْطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هُؤُلَاءِ أَهْدَى  
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ ،  
وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » .

وَوَافَقَتْ قُرِيشٌ عَلَى أَنْ تُحَارِبَ مُحَمَّدًا مَعَ الْيَهُودِ ، وَلَمْ يَكْتُفِ الْيَهُودُ بِالْاِتْفَاقِ مَعَ قُرِيشٍ عَلَى  
ذَلِكَ ، بَلْ خَرَجُوا يَتَفَقَّدُونَ مَعَ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى ؛ كَانُوا  
يُؤْيِدُونَ أَنْ يَقْضُوا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ .

بلغَ المُسْلِمِينَ أَنَّ الْيَهُودَ أَبْرَوْا عَلَيْهِمْ قُرْيَشًا  
 وَالْعَرَبَ ، وَأَنَّ أَبَا سُفَيْفَانَ قَدْ خَرَجَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ  
 لِيُقَاتِلُهُمْ ، فَرَاحُوا يُفَكِّرُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ ؛ إِنَّهُمْ  
 لَا يُسْتَطِعُونَ أَنْ يُقَاتِلُوا هَذِهِ الْقُوَىُّ مُجْتَمِعَةً ،  
 وَلَكُنْهُمْ يُسْتَطِعُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنِ الْمَدِينَةِ . إِنَّ  
 الْعَرَبَ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِلَّا وَجْهًا لِوَجْهٍ ،  
 فَكَانَ الرَّأْيُ أَنْ يَقْفَضَ الْمُسْلِمُونَ فِي وَجْهِ قُوَّاتِ أَبِي  
 سُفَيْفَانَ ؛ وَلَكِنَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ ، الَّذِي خَرَجَ مِنْ  
 بِلَادِهِ يَبْحَثُ عَنِ الدِّينِ الْجَدِيدِ ، حَتَّىٰ قَابَلَ رَسُولَ  
 اللَّهِ ، وَأَسْلَمَ ، رَأَى فِي بِلَادِهِ مَا تَفَعَّلَهُ الْجَيْشُ

المُدَرَّبُ فِي أَثنَاءِ حِصارِ الْمَدْنَ ، فَاقْتَرَحَ حَفْرُ حَدْفَقٍ  
عَمِيقٍ وَاسِعٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ :

- أَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْ تَصْرِبَ عَلَى الْمَدِينَةِ حَدْفَقًا ،  
فَيُصْبِحَ يَنْتَ وَبَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فَلَا يُسْتَطِعُونَا افْتِحَامَهُ .  
أَعْجَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا الرَّأْيِ ، فَسَأَوْلَ فَأَسَّا ،  
وَصَرَبَ بِهِ يَحْفِرُ الْحَدْفَقَ ؛ وَقَامَ الْمُسْلِمُونَ يَحْفِرُونَ  
حَوْلَ الْمَدِينَةِ حَدْفَقًا عَمِيقًا .

وَنَالَ التَّعْبُ مِنَ الرِّجَالِ ، فَرَاحَ النَّبِيُّ يُشَجِّعُهُمْ  
وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، كَانَ يَرْجِزُ بِكَلْمَاتِ ابْنِ  
رَوَاحَةَ ، أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ :

لَا هُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	وَلَا تَصْدِقُنَا وَلَا صَلِّنَا
فَإِنَّرَلَنْ سَكِّيَّةَ عَلَيْنَا	وَثَبَتَ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَبَنَا
وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَعُوْنَا عَلَيْنَا	وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةَ أَيْسَا
فَرَاحَ الْمُسْلِمُونَ يُرَدَّدُونَ :	فَرَاحَ الْمُسْلِمُونَ يُرَدَّدُونَ :
لَخْنَ الْذِينَ يَأْيُّوْنَا مُحَمَّدًا	عَلَى الْجِهَادِ مَا يَقِنَّا أَبْدَا

وراح سَلْمَانٌ يَضْرِبُ فِي الْخَدْقِ ، فَاعْتَرَضَهُ  
صَخْرَةً ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَلَمَّا رَأَهُ  
يَضْرِبُ ، وَرَأَى شِدَّةَ الْمَكَانِ عَلَيْهِ ، ذَهَبَ إِلَيْهِ ،  
وَأَخْدَدَهُ مِنْهُ الْمَغْوَلُ ، فَضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً ، فَلَمَعَتْ تَحْتَ  
الْمَغْوَلِ بَرْقَةً ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَلَمَعَتْ  
تَحْتَهُ بَرْقَةً أُخْرَى ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ التَّالِثَةً ، فَلَمَعَتْ بَرْقَةً  
أُخْرَى .

فَقَالَ لَهُ سَلْمَانٌ :

— يَا بَنِي أَنْتَ وَأَمِّي ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا هَذَا الَّذِي  
رَأَيْتُ لَعْنَةً تَحْتَ الْمَغْوَلِ وَأَنْتَ تَضْرِبُ ؟  
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ :

— أَوْقَدْتَ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانَ ؟

— نَعَمْ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ :

- أَمَّا الْأُولَى ، فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَىٰ بَابَ الْيَمَن ،  
وَأَمَّا الْثَانِيَة ، فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَىٰ بَابَ الشَّامِ وَالْمَغْرِب ،  
وَأَمَّا الْثَالِثَة ، فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَىٰ بَابَ الْمَشْرِقِ .

فِي هَذِهِ الْلُّحْظَةِ الشَّدِيدَةِ ، الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ  
يَحْفِرُونَ فِيهَا الْخَنْدَقَ ، وَلَا يَسْتَطِعُونَ أَنْ يَخْرُجُوا  
فِي هَا لِأَعْدَائِهِمْ ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَىٰ تِقْيَةٍ مِنْ نَصْرِ  
الَّهِ ، وَكَانَ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ ، وَيَنْشُرُ  
دِيَنَهُ فِي الْيَمَنِ وَفِي الشَّامِ ، وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

٣

جَاءَ أَبُو سُفَيْفَانَ فِي جَيْشِ عِدَّتِهِ عَشْرَةِ آلَافِ ،  
وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ ؛ وَكَانَ الْخَنْدَقُ بَيْنَ  
الْجَيْشَيْنِ ، وَأَغْلَقَ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ حِصْنَهُمْ عَلَيْهِمْ ،

كَانُوا قَدْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى أَنْ يَعِيشُوا فِي  
جِوارِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَمَانٍ ، وَلَكِنَّ رَّاعِيمَ الْيَهُودِ الَّذِي  
أَتَفَقَّ مَعَ قُرَيْشٍ عَلَى الْقِتَالِ ، جَاءَ إِلَى الْحِصْنِ ، وَقَالَ  
لِرَئِيسِ بَنِي قُرَيْظَةِ :

- وَيَحْكُ ، افْتَحْ لِي .

فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا جَاءَ  
إِلَيْهِ إِلَّا لِيَطْلَبَ مِنْهُ قِتَالَ مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ :  
- إِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا ، فَلَمَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي  
وَبَيْنَهُ ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا .

- وَيَحْكُ ! افْتَحْ لِي أَكْلَمُكَ .

وَاسْتَمْرَرَ يُلْحُ عَلَيْهِ ، حَتَّى فَتَحَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ :  
- وَيَحْكُ ! جَنْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ .  
- وَمَا ذَاكَ ؟

— جئتك بقريش والعرب ، قد عاهدوني أن لا يرثوا حتى نتأصلَّ مُحَمَّداً ومن معه .

فقال زعيم بنى قريظة :

— ويحقك ! فدَعْنِي وما أنا عليه ، فلأنِّي لم أرَ من محمد إلا وفاءً وصدقًا .

إلا أنه قَبِيلَ أخيراً أن ينضمَّ بنو قريظة ، حلفاءُ محمد ، إلى أعدائه ؛ وبَلَغَ الخبرُ رسولَ الله ﷺ ، فارسلَ إلى بنى قريظة ساداتِ المسلمين في المدينة ، وقال لهم :

— انطلِقُوا حتى تأتُوا هؤلاءِ القوم ، فَتَنْظُرُوا أحقَّ ما بَلَغَنا عنهم .

وذهبَ المسلمون إلى اليهود ، وسأَلُوهُم عَمَّا بَلَغَ رسولَ الله عنهم ، فقال اليهودُ في سُخرية :

- مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ .  
وَعَلِمَ سَادَاتُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ ، أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ  
انْضَمُوا إِلَى أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَعَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ،  
وَأَبْلَغُوهُ أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ تَحَانَوْهُ ، وَمَالُوا إِلَى أَعْدَائِهِ .

٤

حَاوَلَ الْكُفَّارُ أَنْ يَجْتَازُوا الْخِدْقَ ، وَلَكِنَّ سِهَامَ  
الْمُسْلِمِينَ كَانَتْ تُرْدُهُمْ . وَاسْتَمْرَ حَصَارُ قَرِيشٍ  
لِلْمُسْلِمِينَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ ، فَتَضَالَقَ أَبُو سُفَيْفَانَ ، كَانَ  
يَحْسَبُ أَنْ سَيَقْضِي عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَنْصَارِهِ فِي يَوْمٍ  
وَاحِدٍ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَكَّةَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْخِدْقَ حَالَ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُحَقِّقَ هَذَا الْأَمْلَ .

وَقَرَأَ فُرْسَانٌ مِنْ قُرِيشٍ مِنْ مَكَانٍ ضَيْقٍ فِي  
الْخَنْدَقِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي نَفْرٍ مِنْ  
الْمُسْلِمِينَ وَقَاتَلُوهُمْ، وَدَارَتْ مُبَارَزَاتٌ بَيْنَ فُرْسَانِ  
قُرِيشٍ وَفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ، اتَّهَمَتْ بِانْكِسَارِ فُرْسَانِ  
قُرِيشٍ. وَلَكِنَّ أَشَدَّ الْبَرْدُ وَالْجُوَعُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ،  
وَنَرَكَتْ بِهِمْ شِدَّةً عَظِيمَةً بِسَبِّبِ الْحِصَارِ، فَرَأَخَ  
رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو رَبَّهُ :

— اللَّهُمَّ مُنْزِلُ الْكِتَابِ، سَرِيعُ الْحِسَابِ، اهْزِمْ  
الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَرَلِزِّهُمْ  
وَاشْتَدِّ الْبَرْدُ فِي اللَّيْلِ، وَصَفَرَتِ الرِّيَاحُ، فَدَخَلَ  
الْمُسْلِمُونَ خِيَامَهُمْ، وَكَانَتْ فِي الْخَنْدَقِ، وَاشْتَدَّتِ  
الرِّيَاحُ فَاقْتَلَعَتِ خِيَامَ قُرِيشٍ، وَطَرَحَتْ قُدُورَهُمْ،  
فَدَبَّتِ الْفَوْصَنِي فِي مُعْسَكِهِمْ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَجِدُوا

مكاناً يستخفون فيه من غضب السماء ، ولکهم لم يجدوا هأوى لهم ، فاشتد بهم الكرب ، وضفت نفوسهم ، وتمنوا أن تکف الرياح ، ليعودوا إلى مكة ، فقد تختلف الطبيعة مع المسلمين .

وهدأت الرياح ، وأصبح الصباح ، فنظر المسلمون إلى معسكر الأعداء ، فوجدوا سکونا وهدوءا . قال النبي ﷺ :  
— من يأتينا بخبر القوم ؟  
فقال الزبير بن العوام : « أنا » .

وخرج الزبير إلى معسكر قريش وهو يسير في خدر ، فلم يجد إلا قدوراً هنكفيته ، وخماماً مقتلة ، فعاد إلى المسلمين مسروراً وصاح :  
— رحلوا .. رحلوا .

فَشَاعَ الْفَرَحُ فِي صُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَتَّفُوا :  
- لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَغَدَهُ ، وَنَصَرَ  
عَبْدَهُ ، وَأَعْزَزَ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَخْرَابَ وَخَدَهُ ،  
فَلَا شَيْءٌ بَعْدَهُ .

وَحَمَدَ رَسُولُ اللَّهِ رَبِّهِ ، ثُمَّ قَالَ :  
- إِنَّنَا نَغْرُوْهُمْ وَلَا يَغْرُوْنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ .

٥

انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى دَارِهِ ، وَانْصَرَفَ  
الْمُسْلِمُونَ إِلَى دُورِهِمْ ، وَوَضَعَ النَّبِيُّ سِلَاحَهُ ، فَجَاءَهُ  
جِبْرِيلُ ، وَقَالَ لَهُ :  
- أَوْقَدْ وَضَعَتْ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَعَمْ » .

فقال جبريل : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَا مَرْكَبَةِ الْمَسِيرِ  
يَا مُحَمَّدَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنِّي عَامِلٌ إِلَيْهِمْ ، فَمُرْلِزٌ  
بَهُمْ ». .

خانَ الْيَهُودُ مُحَمَّدًا ، وَتَأَمَّرُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْلَا أَنْ  
لَطَفَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ حِصَارِ أَعْدَائِهِ ، لَكَانَ فِي  
ذَلِكَ الْقَضَاءُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، لِذَلِكَ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ  
حَرْبِ الْيَهُودِ ، وَأَخْرَاجِهِمْ مِنْ جُوارِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمْ  
يَعْدُهُمْ أَهَانَ . .

أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ مُؤْذِنًا ، فَأَذْنَنَ فِي النَّاسِ :  
— مَنْ كَانَ سَمِيعًا مُطِيعًا ، فَلَا يُصْلَيْنَ الْغَصْرَ إِلَّا فِي  
بَنِي قُرَيْظَةَ . .

وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي عَدَّةِ الْقِتَالِ ، وَذَهَبُوا إِلَى  
حَصُونِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَلَمَّا رَأَهُمْ الْيَهُودُ ارْتَجَفُوا ،  
وَدَخَلُوا الْحَصُونَ ، فَأَغْلَقُوهَا عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ

عَنْهُمْ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ يَكْفِيهِمْ ، فَعَاصَرَهُم  
الْمُسْلِمُونَ حَتَّى طَلَبُوا التَّسْلِيمَ .

عَرَضَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ أَن يُعْلِمُهُمْ إِسْلَامَهُمْ  
فَرَفَضُوا ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَن يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ  
اللَّهِ حَكْمًا ، فَلَمَّا جَاءَ الْحَكْمُ رَأَى أَنَّهُمْ تَأْمَرُوا عَلَى  
حُلْفَائِهِمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْخِيَانَةَ جَزَاؤُهَا الْقَتْلُ ، فَأَمَرَ  
بِقَتْلِ الرِّجَالِ ؛ وَنَفَذَ حُكْمُ ذَلِكَ الْحَكْمِ فِي الْيَهُودِ ،  
فَأَصْبَحَتِ الْمَدِينَةُ لِلْمُسْلِمِينَ ، أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ إِيَاهَا ،  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .